للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢٢ —

الرافعى وعبد الله عفيفى :

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفى خصماً للرافعى على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولكن الأستاذ عفيفى فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الاباشى باشا ، قد دارت به المقادير دورتها حتى وقفته مع الرافعى وجهاً لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعى وعبد الله عفيفى

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعى ذياداً عن الدين وحفاظاً عن لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأى وقلة المعرفة ... ومابدّ من أن يكون فى نقد الرافعى أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيغ ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعى لم يكن موفقاً فى النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعة وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والاقتصاد فى التهمة وضبط النفس ...

وثمت شىء آخر يفرق بين هذه الخصومة وبين سائر الخصومات : هو أن هذه المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتاً قارًّا فى موضعه ، لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع ... !

* * *

كتب الرافعى مقالات ثلاثا بعنوان « على السَّفُّود » فى نقد ثلاث قصائد أنشأها الأستاذ عبد الله عفيفى فى مديح الملك — والسفُّود هو الحديدة التي يُشْوَى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى . وإذ لم يكن توقيع الرافعى فى ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يُعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه فى الكتابة وفى نمط الكلام ، فاسترسل ماشاء كأنه يتحدث في مجلسه إلى جماعة من خاصته : لا يعنيه الأسلوب ولا جودة العبارة ولا عربية اللفظ ، بقدر مايعنيه أن يتأدّى معناه إلى قارئه في أى أسلوب وبأية عبارة ؛ فكثر الحشو فى هذه المقالات من الكلمات العامية والنكات الذائعة والأمثال الشعبية ، ولكنه إلى ذلك لم يستطع أن يتخلص من كلّ لوازمه فى النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات فى أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعى حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكي ، وأن هذا الشعر الذى يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه فى مديح الملك . أو لعل الرافعي كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات ؛ فلم يتحرج مما كتب ، وألقى القول على سجيته فى صراحة وعنف وقسوة ، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغي أن يكون عليه الشعر الذى يقال فى مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ؛ فجاء فى بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبى العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء . وكأنما ركبته طبيعةٌ غير طبيعته خُيِّلتْ إليه أنه يكتب في نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبى الخالص من دون ماينبغى أن يُراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر ، فمالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همساً غير خفى ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحداً منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور يسأله فلم يظفر منه بجواب

ونُشر المقال الثانى والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر؛

ونم الرافعي على نفسه بلسانه في مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته في النقد

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر في أسلوب السياسي البارع : « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ماقلت في شاعر من شعراء الملك،وأن تكتب عنه بهذا الأسلوب ؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هي دسيسة تصطنع الأدب لتفض المخلصين من رعيته عن بابه ...؟»

وغص الرافعي بريقه ، وتبين الهاوية تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الابراشي باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التي مسها الرافعي بمجانته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة البيتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ؛ إلا الصلة العامة التي بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعي أن تكون خاتمة ذلك هي انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذي يدرس الطب في جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين (في سنة ١٩٣٤) لسبب آخر ، ولم يكن باقياً بين الدكتور الرافعي وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر كما تقدم القول

* * *

لقد كثر ما استغل خصومُ الرافعي السياسةَ لينالوا منه . ولقد كثر ما اتهموه من أنه من أدوات الابراشي باشا في محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعي والإبراشي باشا من صلات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعي بالقصر إلا في عهد الإبراشي ، وما كان معه يوماً على صفاء . على أنه كان تلميذاً معه في مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر ...

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعي غداة دالت دولة الإبراشي ، فصلاً مؤثراً ... بعبارات بليغة... في صحيفة من صحف الشعب ، يصف جناية الإبراشي باشا على الأدب ؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعي ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأت هذه المقالة مع الرافعي ، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ... أرأيت ... ؟ صدق ! لقد جنت السياسة على الأدب[1] »

* * *

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التي كتبها الرافعي عن الأستاذ عبد الله عفيفي صدى في غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعي إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفي في أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه في كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات المرحوم شوقي بك في خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعي عنه مقاله المشهور في مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقي بك لو كان مصرياً خالصَ المصرية لما تهيأت له الأسباب النفسية التي بلغت به مبلغه في الشعر ؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس

هو رأي أبداه فيما أبدى من الرأي ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره . وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كفتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأي أبداه الرافعي مجرداً من الهوى ، لا يعني به إلا أن يستوفي عناصر بحثه . ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون

أما طائفة فمالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى في دعواه . ذلك سلامه موسى ... !

وأما ثانية فقالت : وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية في قاعدة عامة لا تستثني أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفي أعراقه دم غريب ... ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامي الشعراء المصريين

وانتفى الأستاذ عبد الله عفيفي قلمه ليكتب في (البلاغ)

(١) سنتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة في كتابنا : « المؤثرات السياسية في جيل من الأدباء » الذي نعده للنشر بعد الفراغ من هذه المقالات إن شاء الله

مقالاته الأسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر فى مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه ردًّا على دعوى الرافعى . ومضى فى هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه في الناس والحياة ؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظلّ على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه ... فكان حسْب الأستاذ عفيفي فى هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان فى الرد على الرافعى ...!

* * *

وقد ظل الرافعى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الابراشي ، وبينه وبين عبد الله عفيفى . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفى فى الصحف مدحة ملكية ، فى موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعى فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعود من المزاح والتندر

وقد ذكرت فيما قدمت من هـذه المقالات أن الرافعى كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة » ، فمنهن كالمتنبى ، ومنهن كالبحترى ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفى

فهذه الأخيرة عنده هى ذلك النوع (البلدى) من نساء الطبقة الثالثة ، التى تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) فى ملاءتها السوداء ، غضةً بضّـة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة الدم واللحم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

معذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفى ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت ، وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى . وللأستاذ عفيفى في نفسى رغم أولئك كل إجلال واحترام

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

إلى الأصدقاء : الأستاذ عبد الرحيم شمد بمرسى مطروح ، والأديب أحمد الصاوى فضل الله بأم درمان ، والسيدة أمينة العيدروس بواد مدنى ، والآنسة فدوى طه بنابلس ، والأديب السيد الصباحى ببورسعيد ، لأشكر لهم ، وستجمع هذه المقالات بعد تمامها إن شاء الله فى كتاب ، وفلانة هى هى التى عرفها كل من كتب إلى ؛ ولا أظن أن حفلة تأبين الرافعى ستقوم هذا العام لأننا لم نعرف بعد كيف يكون الوفاء لأدبائنا الراحلين . وعند الدكتور زكى مبارك أن مقالة يكتبها ، هى حسب العربية فى الوفاء لمن يموت من أدباء العربية ، ولو كان هذا الراحل هو مصطفى صادق الرافعى ! يرحمه الله !

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٨٩ —

فى اليوم الذى يطرق الموت بابك ، ما ذا تقدم إليه ؟

آه ، سأضع أمامه كأس حياتى المترعة لكيلا يرتد صفر اليدين

سأقدم له كل ما يحلو من ثمار أيام الخريف وليالى الصيف ، وكل ما كسبت والتقطت فى حياتى المليئة بالجد ... سأقدمها كلها إليه عند آخر لحظة من لحظات حياتي ... حين يطرق الموت بابى

— ٩١ —

أيها الموت ، يا من هو آخر أمل فى الحياة ، تعال واهمس فى أذنى !

الأيام تمر وأنا أرقب لقياك ؛ فمن أجلك أنشأت فى حياتى السرور والألم معاً

أنا ، وكل ما أملك ، وكل ما آمل ، وكل حين ... كل أولئك يندفع إليك فى أعماق الخفاء . إننى أبتغى النظرة الأخيرة من عينيك ثم لتكن حياتى شيئاً تملكه أنت إلى الأبد

لقد صفقت الزهور ، والأكاليل تنتظر العروس . وبعد العرس ستنقلب العروس من دارها لتلقى سيدها — فى خلوة — فى هدأة الليل وسكونه

— ٩١ —

أنا أوقن بأن اليوم الذى أحرم فيه النظر إلى الأرض آت لا ريب فيه ! وأن روحى ستفزع عنى فى صمت . فيسدل على عينى آخر ستار من أستارها

ولكن النجوم ما تزال تتألق فى غسق الليل ، والصبح ما يبرح يتنفس فى حينه ، والساعات تمر جياشة كأنها الموج المضطرب وفيها اللذة والألم فى وقت معاً

وحين تتراءى لى ساعتى الأخيرة يتصدع أمام عينى حجاب الزمن . فأرى من خلال لمات الموت ... أرى دنياك وفيها